

تمثّلات العبودية والانعتاق في الشعر النسوي الأندلسي

The Representations of Slavery and Emancipation in the Feminist Andalusian Poetry

حبيبة عنقر¹، جامعة الجزائر 2، الجزائر، habiba.angar@univ-alger2.dz

إسراء الهيب²، جامعة الجزائر 2، الجزائر، israahb2019@gmail.com

تاريخ قبول المقال: 2023-11-12

تاريخ إرسال المقال: 2023-01-10

الملخص: شهد الأندلس جمهرة من النساء اللواتي أبدعن برقائيق الأشعار، وحلّقت أسماء كثيرات منهن في جوّ الأندلس البديع، فغرّدن على غصنه الرطيب بعدوية وسلاسة، وتدقّق شعرهنّ بانسيابية وطلاوة، فقد هيّجت الأندلس بجمالها قلوب الشعراء بعامّة، وألهمت بيئتها المترفة المرهفين، وتغنّت المرأة الأندلسية شعرا جميلا سلسا عذبا، كان مرآة عاكسة للبيئة التي قيل في كنفها، وقد تجلّت في شعرهنّ مظاهر للعبودية والتبعية والخضوع ومواطن أخرى للانعتاق والتحرّر والكبرياء، نحاول في هذه الدراسة رصد ثنائية العبودية والانعتاق في الشعر النسوي الأندلسي.

الكلمات المفتاحية: العبودية؛ الانعتاق؛ المرأة؛ الأندلس.

Abstract: Andalusia witnessed a mass of women who created the finest poetry, osphere; so, they warbled on its tender branches with euphony and sweetnand the names of many among them flew in Andalusia's exquisite atmess; their poetry flowed smoothly and glossily. With its beauty, Andalusia irritated the hearts of the poets in general, and its luxurious environment inspires the sensitive ones. The Andalusian woman sang a beautiful, smooth and sweet poetry, which constituted a reflective mirror for the environment in which it was warbled. Their poetry included manifestations of slavery, subordination, submission, and in other contexts emancipation, liberation and pride. In this study, we try to monitor the pair of slavery and emancipation in the Andalusian feminist poetry.

Key words : Slavery; Emancipation; Women; Andalusia.

مقدمة:

ليس الشعر مجرد خطاب أدبي له خصوصيته الجمالية التي تطبعه، ولكنه يعدّ أيضاً وشما للذاكرة الفردية والجماعية للمجتمعات وتجسيدا لواقع يرصد خلفيات ووقائع مختلفة، والأندلس بلد على جماله وحضارته عاش طبقة اجتماعية امتدّت آثارها حتّى بلغت أشعار النساء، اللواتي صنّفن بحسب البيئة إلى حرائر وإماء، شاركت كلتاها في إثراء الأدب النسوي الأندلسي، وقد بلغ شعر بعضهن أن قفز بصاحبتة من حياة العبودية وذلّ الحال إلى مصاف الأميرات الآمرات الناهيات، كما أسهمت بعض نساء الأندلس من خلال شعرهن في تحرير قومهن أو مدينتهن من الظلم والطغيان، ولاقى شعرهن آذانا صاغية لدى أصحاب السيادة والقرار، فتغيّر حالهن من الاستعباد والرضوخ إلى الانعتاق والتحرر، وعليه ينطلق المقال من التساؤل التالي: كيف تجلّت ثنائية العبودية والانعتاق في شعرهنّ ومن خلاله؟

سنعرض . فيما سيأتي من الدراسة . نماذج مختارة من شعر نساء الأندلس في محاولة لاستجلاء هذه الثنائية، بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي الذي يسمح بتتبّع الشعر النسوي من خلال رصد تمثلات العبودية والانعتاق بالوصف والتحليل.

المبحث الأول: المرأة الأندلسية بين مفهومي العبودية والانعتاق

يتناول هذا المبحث دراسة لمفهومي العبودية والانعتاق كثنائية يتداخل معنى كل منها بالآخر، وعلاقتها بالمرأة الأندلسية، وجاء مقسّما على ثلاثة مطالب أولها في مفهوم هذه الثنائية، وثانيها خصّ مكانة المرأة الأندلسية في المجتمع، وثالثها حول مظهري العبودية والانعتاق بين الحرائر والجواري.

المطلب الأول: مفهوما العبودية والانعتاق

يعدّ مفهوما العبودية والانعتاق مفهومين نسبيين، فالعبودية والانعتاق ليسا وصفا بمقدار ما هما إحساس وشعور وحالة تُعاش في الواقع.

ارتبط مفهوم العبودية بلفظة الرّق والعرق، ففي لسان العرب؛ يُقال فلان عبدٌ بين العُبودَةِ والعبودية والعبدية، وأصل العبودية: الخضوع والتذلّل والعبدُ، المملوكُ خلاف الحرّ، قال سيبيويه: هو في

تمثلات العبودية والانعتاق في الشعر النسوي الأندلسي

الأصل صفة قالوا: رجلٌ عبدٌ ولكنه استعمل استعمال الأسماء، والجمع أعبِدٌ وعبيدٌ¹، وفي المعجم الوسيط، جاءت العبودية خلاف الحرية، من الجذر ع/ب/د/ بمعنى: انقاد وخضع وذلّ، عبُد: عبوداً وعبودية: مُلكٌ هو وآباؤه من قبل، العبد: الرقيق والإنسان حرّاً كان أو رقيقاً لأنّه مريبوب لله عزّوجلّ، العبدية: حالة العبد وصفته².

أما العتق فبخلاف الرّق، وهو الحرية، وكذلك العتاق بالفتح والعتاقة، عتق العبدُ يعتقُ عتقاً وعتقاً وعتاقاً وهو مُعتقٌ وعتيقٌ، وأمةٌ عتيقٌ وعتيقةٌ في إماءٍ عتائق³، وفي المعجم الوسيط جاء: عتق العبد: عتقاً وعتاقاً وعتاقةً: خرج من الرّق فهو عاتقٌ وعتيقٌ، جمع عتقاء وهي عتيقٌ وعتيقةٌ، جمع عتائق، أعتق العبد: حرّره فهو مُعتقٌ⁴.

والانعتاق إذن هو مصدر الفعل انعتق، بزيادة حرفين للفعل الثلاثي عتق، ليصبح بمعنى المطاوعة، أي أنّ أثر الفعل يظهر على مفعوله وكأنّه استجاب له، يُقال كسر انكسر، فتح انفتح، عتق انعتق.

وبناء على ما تقدّم تعدّ كل من العبودية والانعتاق مصدران يصوّران حالين متعاكسين ومتلازمين في الوقت ذاته، فالعبودية التي تكرّس للدّل والتبعية والانقياد والانصياع والرضوخ، هي التي تحرّك انتفاضة الانعتاق وكسر القيود والتحرّر، لذا كان مفهومهما نسبياً وليس وصفاً مطلقاً، لأنّهما إحساس وشعور وحالة يعيشها الإنسان، فما فائدة الحرية التي يستشعرها إنسان في ظلمة السجن إن لم يعيشها في واقعه، وما فائدة حرية لا تضبطها قوانين تنظّمها، وما قيمة انعتاق من أغلال الرّق في ظلّ استعباد نفسي يعيشه المرء داخله.

¹ يُنظر ابن منظور: لسان العرب، ج1، تح عبد الله علي الكبير وآخرون، دط، دار المعارف، مصر، دت، ص 2776 . 2777.

² إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ط2، مجمع اللغة العربية، مصر، 1972، ص 629 . 630.

³ لسان العرب، ص 2798.

⁴ المعجم الوسيط ص 630.

المطلب الثاني: مكانة المرأة في المجتمع الأندلسي

كانت النساء الأندلسيات يتميكن بحسب الأصول العرقية والدين، والطبقة الاقتصادية والمستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي لهنّ، حيث عرف المجتمع الأندلسي السيدة الحرة والجارية وانقسمت الجوارى إلى جوارى اللذة، وجوارى الحانات وأمهات الأولاد، وجوارى الخدمة.

أولاً: المرأة الحرة

كنّ من بنات الأثرياء اللواتي ينتمين للطبقة الأرستقراطية أو من طبقة العامة، ولكن لم يصلنا الكثير عن دور المرأة وأوضاعها الاجتماعية في وسط العامة، لأنّ المؤرخين كانوا يوجّهون جلّ اهتمامهم للحديث عن الطبقة الحاكمة وأهملوا حياة بقية الشعب كونهم يؤلفون كتبهم على وجه العموم برعاية ملك أو أمير أو أسرة ذات سلطان¹، "ولم يكن بين نساء العامة إماء مملوكات إلا نادراً، ذلك أنّ ارتفاع أسعار الجوارى بالنسبة لدخل العامل يجعل هذه الملكية بعيدة المنال، وقد أضفى قلّة الجوارى داخل بيوت العامة الأندلسيين جواً من السعادة، فكانت المرأة العامية لا تجد من يشاركها عواطف زوجها ومشاعره"².

ثانياً: المرأة الجارية

كان حضورهنّ في المجتمع الأندلسي كبيراً ولاسيما عند الطبقة الأرستقراطية، بسبب كثرة الغنائم والسبايا، وفي هذا يقول صاحب المعجب في عهد ابن أبي عامر: "ملا الأندلس غنائم وسبايا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم، وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهّزون به بناتهم من الثياب و الحلي والدور"³.

وقد عرفت الجارية تحت عدّة مسميات منها: القينة والسريّة والأمة والرقيق والجارية؛ القينة هي الأمة المغنيّة أمّا السريّة فاختلف في تسميتها بين من يعتبرها من موقع السرور الذي تحدّثه لدى الرجل،

¹ يُنظر عباس دلال: المرأة الأندلسية مرآة حضارة شعت لحظة وتشظّت، ط1، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 2019، ص24.

² مصطفى مسعد سامية: صور من المجتمع الأندلسي (رؤية من خلال أشعار الأندلسيين وأمثالهم الشعبية)، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1998، ص112.

³ المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصحّحه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة، مصر، 1949، ص38.

وبين من اعتبرها غانية يُواقعها الرجل ويبقي أمرها سرّاً عن حرّته، والأمة هي المملوكة خلاف الحرّة وجمعها أمّوات وإماء، وقد أطلق الأندلسيون لفظة أمة على الجارية التي تتخذ الغناء والرّقص مهنة لها، والرّق من رفقّ وهو الملك والعبودية، ويُقال أمة رقيق ورقيقة من إماء رقائق، أمّا لفظة جارية فهي الفتية بين النساء بينة الجارية، لتتوسّع اللفظة فتغدو الجارية كلّ أمة وإن كانت عجوزاً¹.

علما أنّ أكثر النسوة اللاتي لمعت أسماؤهنّ من الجوّاري الحسان كانت تُقاس بقيمتهم بقدر جمالهم وحسن صوتهنّ وقولهم للشعر، لذا أسرف ملاكهم في تعليمهم وذهابهم بهم كلّ مبلغ للرفع من أقدارهم ورفع مستواهم المادّي والعقلي، بحيث أصبحن يشكّلن لوحدهن طبقة اجتماعية...، ورغم كثرة عددهن فقد بدت الشاعرة الحرّة أسعد حظّاً وأرفع مكانة وأوفر إنتاجاً من الشاعرة الجارية عند الرواة والمؤرخين القدماء².

المطلب الثالث: العبودية والانعتاق بين الحرائر والجوّاري

وجب التنويه بما لا يسمح مجالاً للشك؛ أنّه لا يمكن اعتبار مظاهر العبودية حكراً على الجارية ولا مظاهر الانعتاق حكراً على الحرّة، وإنما اشتمل شعر كليهما على المظهرين، بل قد كانت الجارية أكثر حرّية من الحرّة نفسها، حيث تميّزت بعض الجوّاري بسعة ثقافتهنّ، لما تتلقاهن من تعليم ودراية، ويذكر لنا المقرّي أنّ الجوّاري كنّ يُحملن إلى المعلمين لاختبارهنّ³، ومن المعلمين الذين اختصّوا بتعليم جواريهما؛ ما يذكره لنا ابن بسّام عن ابن الكتاني الذي يقول: "في ملكي أربع روميات كنّ بالأمس جاهلات، وهنّ الآن عالمات، حكيّات، منطقيات، فلسفيات، هندسيات موسيقيات، نحيّيات عروضيات أدبيات خطّاطات"⁴، ومن الواضح أنّ "هذا النموذج يصحّ معه القول أنّ تعليم الجوّاري لم يسهم في رفع أثمانهنّ أو تحسين أوضاعهن الاقتصادية فحسب، إنّما شكّل ذواتهنّ المستقلة وأشعرهن بقيمتهم، وأعلى من

¹ يُنظر جانان عزالدين شبّانة، الجوّاري وأثرهنّ في الشعر العربي في الأندلس، رسالة ماجستير في اللّغة العربية وآدابها، كلّية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الخليل، 2005، ص 2. 4.

² يُنظر علي سلمى علي، المرأة في الشعر الأندلسي عصر الطوائف، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر، 2014، ص 230، 256.

³ يُنظر المقرّي التلمساني أحمد بن محمّد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، تح إحسان عبّاس، دط، دار صادر، لبنان، 1986، ص 286. 287.

⁴ ابن بسّام الشنتريني أبو الحسن علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج3، تح إحسان عبّاس، دط، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1997، ص 320.

تمثلات العبودية والانعتاق في الشعر النسوي الأندلسي

إحساسهن وتقديرهنّ لأنفسهنّ، وخفف من وطأة الإحساس بأنهنّ متاع يُباع ويُشترى¹، ولكن هذا الحكم ليس حكماً بالمطلق، إذ تعتبر قضية الإمام والسراى جزء من قضية الرّق على عمومها، فإن كان العتق برّاً كبيراً بالإنسان الذي سُلّبت حرّيته وهانت على الناس كرامته... فإنّ العتق لا يؤوّل بالجارية إلى حرّية... وربما نقلها العتق من عبودية لسيد واحد إلى عبودية لكلّ سيد تأوي إليه²، هذا وتزوّدنا المصادر بأخبار عن بعض الجوّاري اللّواتي عشن حياة كريمة في رعاية الحكّام والأمراء وتشرّدن بعيداً عنهم، بانتقالهن إلى مصير مجهول خاصة في حال تغيّر السلطة، فيصبحن عرضة للبيع والشراء بعدما كنّ في نعيم ورغد.

المبحث الثاني: تمثلات العبودية والانعتاق وأبعادهما في الشعر النسوي الأندلسي

جاء هذا المبحث في ثلاثة مطالب تصبّ كلها في رصد تمثلات العبودية والانعتاق في الشعر النسوي ومن خلاله، فشمّل المطلب الأوّل تحقّق المظهرين في شعرهنّ، أمّا المطلب الثاني فوصف تبدّل حال الشاعرات من حياة العبودية لرحابة الانعتاق والتحرّر بفضل شعرهنّ، وأخيراً ختمنا المبحث بمطلب ثالث حول تحرّر وانعتاق الشاعرات من ظلم الولاة واستبدادهم.

المطلب الأوّل: مظاهر العبودية والانعتاق في شعرهنّ

يُقصد بمظاهر العبودية والانعتاق في شعرهنّ، مدى توظيف الشاعرات لما يدلّ على العبودية وتمظهراتها سواء فيما تعلّق بهنّ أو بمجتمعهنّ أو ما يدلّ على الانعتاق والتحرّر من القيود مهما كان نوعها، كما قد يشتمل شعرهنّ على المظهرين معاً في الأبيات ذاتها، فكما ذكرنا سابقاً في مفهوم العبودية والانعتاق أنّهما متلازمين يوجب أحدهما الآخر، وهذه المظاهر نحاول رصدها سواء من خلال الألفاظ الدالة الموظّفة مباشرة، أو نستشفّها من خلال المعاني في أشعارهنّ.

¹ العلي فرياد عبد الرحمن الجوّاري في الأندلس جدل العبودية والإبداع، التواصل الأدبي، العدد العاشر، 2018، ص219.

² ابن عبد ربه الأندلسي أحمد بن محمد: طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وغرائب وأخبار وأسرار، تح محمد إبراهيم سليم، دط، مكتبة القرآن للطباعة والنشر، مصر، دت، ص19.

أولاً: مظاهر العبودية في شعرهنّ

1. منه ما وصفت به الشاعرة مريم بنت يعقوب الأنصاري حالها عند كبرها قائلة¹:

وما تَرْتَجِي من بُنْتِ سبعين حَجّةٍ وسَبْعِ كنسجِ العنكبوت المهلهل
تَدْبُ دبيبَ الطّفْلِ تسعى إلى العصا وتمشي بها مَشْيَ الأسير المكبّل

وقد وصف لنا الدكتور مصطفى الشّكعة هذين البيتين؛ بأنّهما "يرجّحان قصيدة بأكملها ثقلاً ووزناً، فلقد بلغت مريم الذروة في التعبير عن آلام الشيوخوخة وهمومها تعبيراً لم يستطع كثيراً من الشعراء الرّجال أن يصلوا إلى مقامه في دقّة التصوير وبراعة التعبير"²، ويبدو أنّ دقّة التصوير تحيلنا إلى سياق اجتماعي مترسّب في الثقافة الجمعية للمجتمع الأندلسي فقد نقلت لنا الشاعرة مريم بتصويرها صورة حياة عن المشية المتناقضة للأسرى العبيد وهم يجزّون أصفادهم مكبّلين، بقولها: (تمشي بها مشي الأسير المكبّل)، في صورة ناطقة وصارخة عن حياة العبودية التي تعيشها طبقة العبيد في الأندلس، وما يثير الاهتمام أنّ الشعر بجماليته الفنّية كان بمثابة وثيقة ثقافية حملت لنا ألفاظه ومعانيه أنساقاً ثقافية مسربة في بنيته الدلالية العميقة.

2. في مقابل هذه الصورة التي نقلتها الشاعرة عن حياة العبودية، ومن جانب آخر في تصوير شاعرات الأندلس الجامح وتمنّيهن لقاء معشوقهنّ نجد أنّ بعض الشاعرات وقعن رهينة عبودية العشق، : "قالعشق سلوك إنساني مرتبط بالذّات البشرية وإنّ تعطيل الإرادة أصيل في الهوى لأنّ المرء يرتبط فيه بإرادة شخص آخر، فهو مقيد بهذا الارتباط الذي لا تتفق فيه الإرادتان في جميع الأحيان، وينتهي به الأمر على حالة العجز عن تغيير لا رغبة فيها....، ومن ميزات سيطرة العشق على العشاق وتعطيل الإرادة

¹ بوفلاّقة سعد: الشعر النّسوي الأندلسي أغراضه وخصائصه الفنّية، دط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 2003، ص72.

² الشكعة مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ط4، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1979، ص169.

لديهم، أنهم لا حول لهم ولا قوة فيرتفع عنهم اللوم في جميع أعمالهم وترفع عنهم المسؤولية، باعتبارهم مجبرون لا مخيرون خاضعون لسلطان العشق"¹، ومثاله ما عبرت عنه الشاعرة أنس القلوب . في أبياتها²:

أذنبُ ذنباً عظيماً فكيف منه اعتذاري؟

والله قدرَ هذا ولم يكن باختيارِي

والعفو أحسنُ شيءٍ يكونُ عندَ اقتدارِ

هذه الأبيات تعكس مدى تعطيل الإرادة لدى الشاعرة فهي أسيرة عشقها يتضح هذا في قولها: (ولم يكن باختيارِي)، لأنَّ الإنسان الذي يقع رهينة نزواته ولا يقدر ضبط جموح نفسه، هو إنسان عبد في أدلَّ صور العبودية والرضوخ والاستسلام، حيث تضحي الإرادة عنده معطلة، وبصير مسيراً لرغباته وسلطان عشقه، فهو مقيد أسير نفسه ولو كان حراً في مجتمعه، والشاعرة هنا تصرّح مباشرة أنَّ الذنب الذي أذنبته كان مقدراً ولم يكن باختيارها وتلتمس عفواً وصفحاً، وسنقف مطوّلاً مع هذه الشاعرة فيما سيأتي من الدراسة.

ثانياً: مظاهر الانعتاق والتحرر في شعرهنّ

امتدَّ وجه الانفتاح والتحرر من كلّ ضابط ورقيب في شعرهنّ ممثلاً بغرضي الغزل والهجاء، اللّذين بلغ "المجون فيهما دركا من التهنّك المزري لم يكن له سابق وجود لدى شاعر العرب وقد شاع بينهنّ الغزل بالمؤنث أو الجنسية المثلية"³، وهو اتجاه يمثل حدة المجون والمجاهرة بالمعاصي والاستخفاف بالأخلاق والإسفاف في ذكر العورات ووصف ساعات اللقاء في الخلوات... فتتجاوز حواجز المجتمع وموانعه وهي نتيجة انحلال فئة كبيرة من المجتمع الأندلسي حيث أدّى غياب الوازع الديني من نفوس النّاس حكّاماً ومحكومين إلى حدوث خلل عام بدت صورته ومظاهره واضحة للعيان من أهمّها ظاهرة ضعف القيم الأخلاقية في عدّة صور أهمّها: التكاثر المادّي، الترف والإسراف، المجون

¹ يُنظر إقبال عيّاس، بسندى فائزة: ميزات الغزل عند الشاعرات الأندلسيات في ضوء النقد النفسي الحديث، مجلة إضاءات نقدية، السنة الخامسة، العدد عشرون، 2015، ص 20-21.

² يُنظر المقرئ: النفخ، ج 1، ص 618.

³ يوفلاقة سعد، ص 193.

والخلاعة¹، وتذكر المصادر أكثر من شاعرة واحدة سلكت هذا المسلك منهن: أمّ الكرم بنت المعتصم بن صمادح، وولادة بنت المستكفي، ونزهون بنت القلاعي الغرناطية، وحفصة بنت الحاج الركونية وحمدونة بنت زياد المؤدّب وسنكتفي بأبيات لهذه الأخيرة وهي تصوّر تباريح حبّها لفاتة تهواها كانت تستحمّ في النهر، فأثارت عواطفها فأنشدت تصفها قائلة²:

أباح الدمع أسراري بوادي له للحسن أثار بُوادي
ومن بين الطّبّاء مهأه إنس سبّت لبيّ وقد ملكّت فُوادي
لها لحظ ترقّده لأمر وذاك الأمر يمنعني رُقادي
إذا سدّلت ذوائبها عليها رأيت البدر في جُح السوادي

بعيدا عن الجمالية الفنيّة التي تكتسي هذه الأبيات، يُخيّل لقارئها أوّل وهلة أنّها قيلت من شاعرٍ يتغزل، لتصدّمنّا المصادر أنّها أبيات صريحة في هيام الأنثى بالأنثى وفي سابقة معارضة للفطرة البشرية، نستغرب كيف استطاعت الشاعرة أن تصرّح في هذه الأبيات بمشاعرها لامرأة من نفس جنسها دون أيّ خوف وتردد وحياء أو ضابط اجتماعي أو رادع ديني أو وازع أخلاقي، لنستنتج مدى تفتح المجتمع الأندلسي وبلوغ الحرّية فيه مبلغ الانفلات والانحلال والفساد.

من جهة أخرى فقد وُصف هجاؤهن بالفحش والإفزاز أيضا، ومثّل هذا الغرض مهجة بنت التّياني، التي عاصرت ولادة، ولكنّها كانت تنتمي لطبقة غير طبقتها، واشتهرت بفحش القول، إذ كان يجري على لسانها سليقة وطبيعة، وقد هجت ولادة بنت المستكفي بعد أن ساءت علاقتهما مستوحية معاني الهجاء من اسم ولادة ومن معابثاتها الفاحشة معها قولها:

¹ يُنظر إقبالي عبّاس، بسندى فائزة، ص 2524.

² بوفلاقة سعد، ص 194؛ ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، تح محمد عبد الله عنان، ط 2، الشركة المصرية للطباعة والنشر، مصر، 1973، ص 490.

ولادة قد صرت ولادة من غير بعلي، فُضِحَ الكاتم

حكّت لنا مريم لكتّه نخلة هذي ...¹ قائم²

وهاهي ولادة بنت المستكفي تختزل "المثل الأقوى عن حياة الانعتاق والتحرر من جهة أخرى، حيث انتهزت موت والدها خلال زمن الفتنة والاضطراب³ لتعيش حياة متحررة لاهية، فأقامت صالونا أدبيا يجذب إليه أكبر الشخصيات وأعظم الأدباء شهرة، وقد ظهرت جرأتها في الحديث على ما يدلّ أنّها تحرّرت تمامًا فكتبت بالذهب على طرازها الأيمن⁴:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي و أتية تيهها

وكتبت على الطراز الأيسر

أمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتها

وتتمادى ولادة في جرأتها فيما تجيب به دعوة ابن زيدون . المخزومي الوزير الشاعر . قائلة:

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإنّي رأيت الليل أكتم للسّر

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدّر لم يطلع وبالليل لم يسر⁵

فتكسر ولادة التقاليد بهذين البيتين وهي تعدّ بزيارة لابن زيدون في الخفاء، ويبدو من خلال أبياتها أنّها عاشت حياة متحررة من الضوابط الأخلاقية والقيود الاجتماعية، "رغم أنّ هناك من يزعم أنّ الأشعار

¹ كلمة فاحشة لم تُدرج

² يُنظر الشكعة مصطفى: المرجع السابق، ص 213 . 214.

³ تقوّض الصرح الشامخ الذي شاده بالأندلس أمراء البيت الأموي وخلفاؤه، ونشأ عن ذلك تفكك الدولة فوهنت وضعفت، وصارت الفتنة حقيقة، بعدما أخفقت كل المحاولات في إعادة بناء الدولة الأموية، وانقسم الثغر الذي كان في حاجة إلى رابطة جامعة، ولما انقلبت الوحدة إلى تكتّر وأصبحت الأندلس ممالك متعدّدة ولكلّ مملكة حاكم وإدارة وجيش وحياة أدبية وفكرية شبه مستقلة، أصبحت العلاقات بين الحكام قائمة على التحرز، نشأ بعدها النظام المسمّى بنظام أمراء الطوائف، وقد كان بعد زمن الفتنة (399 . 422هـ) للاستزادة يُنظر إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط1، دار الشروق، عمان، 1997، ص7.

⁴ مصطفى مسعد سامية، ص15 . 16.

⁵ يُنظر الشكعة مصطفى، ص181.

الإباحية التي صدرت عن ولادة وشواعر غيرها إنما هو من قبيل التغزل والتخييل...، ويستدلون على ذلك من قول ابن زيدون:

وغيرك من عهد ولادةٍ سراب تراءى وبرق ومض

هي الماء تأبى على قابضٍ ويمنع زبدته من مخض¹

ولكن هذا الرأي لا ينهض على حجة مقنعة تستند على المنطق وهو تأويل مفتعل وتعليل متكلف²، وفي مقامنا هذا لا يهمننا الافتعال والتكلف وإن قيل في باب التخييل والغزل لا في باب التحقق والاستجابة، بقدر ما تهمنا الجرأة في قوله والتحرر من الرقيب الاجتماعي والرداع الديني الذي يرفض مثل هذه الأقوال وإن كانت تخيلاً وغزلاً، لنؤكد مرة أخرى أنّ هذا الشعر كما حمل في معانيه مظاهر للعبودية فإنه حمل أيضاً مظاهر للتحرر والانعتاق من كل رقابة.

يتبين أنّ مظهر التحرر والانعتاق من الضوابط الدينية والأخلاقية قد بدا واضحاً لدى شاعرات الأندلس، ممثلاً بغرضي الغزل الماجن والهجاء الفاحش اللذين نقلنا لنا صورة عن المجتمع الأندلسي في أحد جوانبه الذي عكس "تياراً لاهياً منغمساً في اللهو والترف والمجون بين الخمر والجواري، من أجل الاستمتاع بكل لحظة من الحياة بفلسفة حيوانية شهوانية...، كان هذا التيار سبباً في انهيار الدولة الأندلسية وتخريم أركانها وفساد خلق أفرادها"³.

ثالثاً: اجتماع المظهرين في شعرهنّ

تجلّت ثنائية العبودية والانعتاق مجتمعة في شعر بعض شاعرات الأندلس ممثلة بالنماذج التالية:

1. قمر البغدادية: "امرأة جمعت فنّ الذوق المشرقي إلى جمال الهمس الأندلسي، لم تكن من حرائر النساء وإنما جارية وافدة على الأندلس من بغداد، جارية إبراهيم بن الحجاج اللّخمي، صاحب إشبيلية، وكانت من

¹ جاء في نفح الطيب، ج4، ص 209: هي الماء يعزّ على قابضٍ.

² الريسوني محمد المنتصر: الشعر النسوي في الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1978، ص76.77.

³ إبراهيم توفيق عمر: صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، 2011،

أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان، جمعت أدبا وظرفا ورواية وحفظا، مع فهم بارع¹، وقد ازدهرت نساء إشبيلية، فأخذن يتهايمن إذا مرّت، ويتغامزن إذا عنت، فقالت تردّ على من عاذلها²:

قالوا: أنت قمر في زيّ أطار من بعد ما هتكت قلبا بأشفار
لا حرّة من أحرار موضعها ولا لها غير ترسيل وأشعار
لو يعقلون لما عابوا غريبهم لله من أمة تُزري بأحرار
ما لابن آدم فخر غير همته بعد الديانة والإخلاص للباري

تتحدّث الشاعرة في هذه الأبيات عن أولئك النسوة اللاتي يتهايمن ويتغامزن حولها ويحسدنها على المكانة التي حظيت بها لدى الأمير صاحب إشبيلية، وجاءت الأبيات تنفي عن قمر صفة الحرّة وتعلي من قيمة الإنسان الحر، فلم تكف الشاعرة بذكرها لفظة مفردة وإنما نسبتها للجماعة (حرّة من الأحرار) في دلالة تحمل في سياقها المنزلة المرغوبة والمطلوبة للإنسان الحرّ، لتتبعه مكررة لفظ الحرّة وتقابله بما يعاكسه (أمة تُزري بأحرار)، وكأنّ الشاعرة تؤكد لنا من خلال ألفاظها المنتقاة من معجمي العبودية والانعتاق بلفظتي (الأمة والحرّة) تلك الطبقية الاجتماعية في المجتمع الأندلسي الذي يكرّس لثقافة العبودية والإماء، فيجعل منها مظهرا اجتماعيا مشروعا، لتدلي شاعرتنا برأيها الفاصل في آخر بيت؛ أنّ الإنسان لا يحقّ له الفخر إلّا بهمته بعد دينه وفضل بارئه، وهو بيت غاية في الرصانة والجزالة وكأنّه فصل القول والكلمة المفصل في جدلية الحرّة والعبودية، إذ نلمس فيه تحرّرها من أي عقد، فقد فهمت الشاعرة قمر أنّ الإنسان العاقل لا يعيب غيره بصفة العبودية، لأنّ الإنسان لم يختار أن يكون عبدا وأنّه حرّ مادام مخلصا لبارئه ودينه.

ولم يتوقّف الاستدلال بالألفاظ الدالة على العبودية والانعتاق عند الشاعرة قمر بل نجد شواعر آخر استدللن بهذه الألفاظ في غير موضع واحد.

2. وهاهي الشاعرة بثينة بنت المعتمد اجتمعت في شعرها ثنائية العبودية والانعتاق، فهي الأسيرة الطليقة، الأمة الحرّة، والعبدة السيّدة، مفارقات التقت لدى شاعرتنا التي تتحدر من سلالة حاكمة، أبوها

¹ جمعة أحمد خليل: نساء من الأندلس، ط1، اليمامة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 2001، ص355، 357.

² يوفلاقة سعد، ص47.

تمثلات العبودية والانعتاق في الشعر النسوي الأندلسي

الملك المعتمد بن عباد وأمها الشاعرة الرميكية، "عاشت في بيت مجد وسلطان وعزّ ورفعة وإباء، إلى أن حلت النكبة بأبيها المعتمد وأسر إلى أغمات¹ ووقع النهب والسلب في قصره، كانت بثينة من جملة ما سبي من نسائه وجواريه وبيعت في سوق النخاسة فاشتراها أحد التجّار على أنّها جارية ووهبها لابنه، فامتعت عليه واستسمحته في أن تكتب لوالدها تستشيريه في أمر زواجها به فوافق، فأرسلت كتابها في قصيدة تقول فيها²:

اسمّع كلامي واستمع لمقالتني	فهّي السلوكُ بدتُ من الأجياد
لا تنكروا أنّي سُبَيْتُ وأنّني	بنتُ لملكٍ من بني عباد
ملكٌ عظيمٌ قد تولّى عصره	وكذا الزّمانُ يؤولُ للإفساد
لما أرادَ الله فرقةَ شملنا	وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام التفّاقُ على أبي في ملكه	فدنا الفراقُ ولم يكنْ بمُراد
فخرجتُ هاربةً فحازني امرؤ	لم يأتِ في أفعاله بسداد
إذ باعني ببُع العبيد فضمني	من صائني إلّا من الأنكاد
وأرادني لزواجِ نجلٍ طاهرٍ	حسنِ الخلائق من بني الأنجاد

هذه أبيات مختارة من رسالتها الشعرية المكوّنة من أحد عشر بيتاً، تشير بجملتها إلى أنّها فتاة شجاعة وهي الأميرة الحسينية النسيبة أرغمتها الظروف فتزوّجت من رجل دونها مستوى وطبقة³، وقد جاءت هذه الأبيات محمّلة بالألفاظ الدّالة على حقل العبودية والسبب جليّ واضح، فحياة الشاعرة انقلبت من رحابة الحرّية ورفاهة العيش إلى ذلّ الأسر والسبي، ومن بين الألفاظ والتراكيب الدّالة على العبودية والخضوع نجد: (سُبَيْتُ، فرقة، أسى، الفراق، هاربة، حازني، باعني، العبيد، ضمّني...) أمّا التراكيب الدّالة على مرارة العيش وتبدّل الحال نجد: (لا تنكروا، تولّى عصره، الزمان يؤول للإفساد، فرقة شملنا، طعم الأسى، دنا

¹ بلدة قرب مراكش بالمغرب الأقصى.

² يوفلاقة سعد، ص 139 . 140.

³ يُنظر جمعة أحمد خليل ، ص 171، 172.

الفراق، قام النفاق) هذا وقد طغى على أبياتها الفعل الماضي المتصل بمفعول به وفاعله ضمير مستتر تقديره هو (يعود على سيدها) في قولها: (حازني، باعني، ضمّني، صانني أراذني...) في دلالة قويّة أنّها لم تعد صاحبة قرارها، بل صارت تابعة خائعة خاضعة، ورغم رائحة العبودية التي عبقّت بها أبيات الشاعرة إلاّ أنّها حملت في بعض جوانبها نفحات للانعتاق والتحرّر، وغير بعيد عن الجانب اللّغوي ودلالة الألفاظ نجدّها تستفتح قصيدتها بأفعال الأمر (اسمع، استمع، لاتتكرروا) وإن كانت أفعال الأمر لا تصدر عن العبدّة الأسيرة بل الحرّة المعتقدّة، فالأمر في تعريفه هو طلب الفعل على وجه الإلزام فإنّها في حقيقة الأمر وفي غرضها البلاغي قيلت في باب لفت الانتباه لأهميّة ما ستحمل رسالتها الشعرية، وما يؤكّد هذا استعمالها للفعليّن: (اسمع واستمع من نفس الفعل الصحيح سمع)، كما أنّ هناك مظاهراً أخرى للانعتاق والتحرّر من خلال البناء اللّغوي في هذه الأبيات ومن مظاهره قولها: (أنّني بنت لملك) أسلوب تأكيد أنّها سيّدة حرّة من الأشراف، فما يزال يتربّخ لدى الشاعرة في باطنها الذهني العزّ والحسب والنسب الذي نشأت وترعرعت في أحضانه... أمّا قولها: (ملك من بني عبّاد) تأكيد مرّة أخرى على النسب الشريف فوالدها ملك بن ملك "المعتضد بن عبّاد" أهمّ ملوك إشبيلية، قولها: (صانني) فهي كالدرّة الثمينة التي وجب الحفاظ عليها من حياة الدّل، قولها: (أراذني لزواج نجل طاهر) في دلالة إلى مكانتها الشريفة التي تُصان بعقد زواج يحميها من العيش كأمة تُباع وتُستري.

وتماشياً مع ما تمّ ذكره في المطلب الأول حول مظاهر العبودية والانعتاق لدى شاعرات الأندلس، وبخلاف الشاعرة بثينة التي انتقلت من حياة العنق والحرية لحياة العبودية والأسر فإنّنا نواصل مع ثنائية العبودية والانعتاق ولكن هذه المرّة من خلال مستوى آخر معاكس يمثّل انتقالاً من حال الرّق والعبودية إلى حال الانعتاق والتحرّر، ولعلّه قدر محتوم للشواعر أو ضربة حظّ كان السبب الأول فيها شعرهنّ.

المطلب الثاني: القفز من حضيض الأسر والعبودية إلى رحابة الانعتاق والحرية

يمثّل هذا المستوى تبدّل الحال والمآل من حياة الرّق والعبودية إلى حياة العنق والكرامة، هو تحرّر من السبي وقيوده إلى الرغد والرفاه، وهو تخلص من لفظة أمة جارية للفظّة سيّدة حرّة، إذ نخص بالذكر في هذا المطلب الشواعر الجوّاري دون غيرهنّ، تحديداً اللواتي أزهر حظّهنّ بفضل شعرهنّ، فقفزن من حياة الأسر والعبودية إلى رحابة الانعتاق والتحرّر وصرن سيّدات حرائر يأمرن وينهين، ويمثّل هذا المستوى في أعلى درجاته:

أولاً: أنس القلوب جارية المنصور بن أبي عامر، شاعرة ومغنية من القرن الرابع الهجري، من أخبارها ما رواه عنها الوزير الكاتب أبو المغيرة بن حزم فقال: "نادمت يوماً المنصور بن أبي عامر في منية السرور بالزاهرة ذات الغصن النظير...، فغننتنا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب¹:

قدم الليل عند سير النهار وبدا البدر مثل نصف سوار
فكان النهار صفحة خد وكأن الظلام خط عذار
نظري قد جئنا علي ذنوباً كيف ممّا جنته عيني اعتذاري
يا لقومي تعجبوا من غزال جائر في محب وهو جاري

فلما فرغت من إنشادها شعر الوزير أنها تعنيه فقال بديهة:

كيف كيف الوصول للأقمار بين سمر القنا وبيض الشفّار
لو علمنا بأن حبك حق لطلبنا الحياة منك بشار
ليت لو كان لي إليه سبيل فأقضي من حبه أوطاري

وظنّ المنصور أنّ وزيره وأنس القلوب عاشقان يتحاوران ويتطارحان أمامه فاشتدّ غيظه وكاد يبطش بأنس القلوب، فقال بعد أن استلّ سيفه وغلظ كلامه: قولي واصدقي إلى من تشيرين بهذا الشوق والحنين؟ فقالت الجارية: إن كان الكذب أنجي فالصدق أحرى وأنشدت²:

أذنبت ذنبا عظيما فكيف منه اعتذاري

وكنا قد عرضنا هذا البيت وتتمته في المطلب الأول تحديدا لما تكلمنا عن تمكّن العشق من نفس صاحبه فيصبح أسير هيامه، ويبدو أنّ هذه الشاعرة التي طبعت أبياتها عبودية العشق وأنشدت تطلب الاعتذار وقد كان بينها وبين خلاصها ضربة سيف من المنصور، استطاعت أن تتجو من العبودية

¹ المقرئ: نفح الطيب، ج1، ص617.

² يُنظر جمعة أحمد خليل، ص153 . 154.

بفضل صدقها على مرتين؛ في المرة الأولى لما صفح عنها المنصور فأبقى على روحها، وفي المرة الثانية لما أعتقت و تبدل حالها من الأسر وصارت من نصيب الوزير أبي المغيرة بن حزم.

ولم تكن أنس القلوب الشاعرة الوحيدة التي انتقلت من الأسر إلى العتق، بل نجت من موت محقق بفضل رقة شعرها الذي زاده صدقها وقعا ورأفة في قلب المنصور.

ثانياً: الشاعرة متعة جارية زرياب تسير في نفس دريها، جارية أدبها زرياب وعلمها أحسن أغانيه حتى شبت، كانت رائعة الجمال، وتصرفت بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم تغنيه مرة وتسقيه أخرى، فلما فطنت بإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة فأبى إلا التستر فعنته بهذه الأبيات¹:

يا مَنْ يُغَطِّي هَوَاهُ مَنْ ذَا يُغَطِّي النَّهَارَا

قَدْ كُنْتُ أَمْلِكُ قَلْبِي حَتَّى عَلَقْتُ فُطَارَا

يا وِلْتَا أَثْرَاهُ لِي كَانَ أَوْ مُسْتَعَارَا

يا بِأَبِي فُرْشِي خَلَعْتُ فِيهِ عَذَارِي

فاستطاعت من فرط إعجابها بالأمير أن تصل لغايتها من خلال مقطوعتها، فانتقلت من التلميح إلى التصريح بذكره، وهي تغني بين يديه، فلما انكشف لزرياب أمرها أهداها إليه، وصارت محظيةً عنده.

اللافت للنظر في أمر هذه الجارية المليحة من خلال ما وصلنا عنها من أخبار شحيحة، أنها كانت ذات فطنة ودهاء، فلم تبد دلائل رغبتها في أبياتها إلا عندما اطمأنت لقبولها لدى الأمير، وصرحت بحبها في مقطوعتها التي كانت سببا في عتقها.

ثالثاً: اعتماد الرميكية امرأة تجسد مصادفة عجيبة رفعتها من طبقة الجواري إلى مصاف نساء الملوك، وقد جذبتها المصادفات كي تلتقي شاعرا أدبيا فارسا من سادة الملوك، ولعل سحر الكلمة وسرعة البديهة وعذوبة الكلام وجمال الطلعة لعب دوره في تغيير حالها مع الملك المعتمد ابن عباد صاحب قرطبة وإشبيلية في عصر ملوك الطوائف.

¹ يُنظر المقرئ، ج3، ص131.

كانت اعتماد امرأة جارية قفز بها شعرها وصارت من شهيرات نساء الأندلس في القرن الخامس، هي اعتماد الرميكية وأصبحت تُكَنَّى بالسيّدة الكبرى، قال ابن الأثير: " الجارية الحظيّة (اعتماد) وهي أمّ الرّبيع وتعرف بالسيّدة الكبرى، تُلقَّب بالرميكية نسبة لمولاه رميك بن الحجاج، ومنه ابتاعها المعتمد في أيام أبيه المعتضد، وكان مفرط الميل إليها حتّى تُلقَّب بالمعتمد لينتظم اسمه حروف اسمها"¹، وقد بدأت حكاية هذه الجارية يوم خرج المعتمد مع وزيره وصديقه ابن عمّار للنزهة على ضفاف نهر اشبيلية، فهبّ نسيم عليل مكوّنًا زردًا في النّهر، فقال المعتمد لصديقه: أجز يا ابن عمّار (صنع الرّيح من الماء زرد...)، فأطال الفكر ولم تسعفه بديهته في الإجازة، وكانت نسوة من المدينة يغسلن الثّياب بجانب النّهر، فقالت إحداهنّ: (أيّ درع لقتال لو جمد...) فأعجب ابن عمّاد بحسن ما سمع، وإذا بصاحبة الصوت في صورة جميلة، فسألها إن كانت ذات بعل؟ وابتاعها من الرميك، وتزوّجها وأنجبت له أولاده الملوك²، في حين من كان يعرف هذه المرأة قبل أن تلتقي ملك اشبيلية، ومن كان سيسمع بأخبارها لولا أن جمعتهما المصادفة بعجز بيت شعر قفزت به من العبودية إلى سدة الأميرات الشهيرات التي خلّدت ذكراهنّ الكتب، وصارت تُلقَّب بالسيّدة الكبرى، واقتعدت مكانا في القصور بشطر من الشعر كان له وقعه في قلب ملك اشبيلية.

وغير بعيد عن حياة الحكّام والأمراء وتأثّرهم بشاعرات الأندلس، ومن زاوية أخرى ننقل للمستوى الثالث ولكن هذه المرّة في صرخات إغاثة واستجد لشاعراتنا من ظلم وجور الولاة في محاولة للانعتاق من الطغيان والاستعباد.

المطلب الثالث: انعتاق وتحرّر من ظلم الولاة باستجابة الحكّام للشواعر الأندلسيات

يمثّل هذا المستوى مدى تأثير شعر النّساء الأندلسيات على أصحاب السيادة والقرار، وصدى أصواتهن التي خاطبت الحكّام والأمراء فاستجابوا لصرخات شاعراتنا المضطهدة، وتغيّر حالهن وحال أقوامهنّ وبلداتهن التي عانت جورا وطغيانا من الولاة، فرفعن مظالمهنّ في أبيات شعرية لاقت الآذان المنصّة والضمائر الحيّة واسترجعن حقوقهنّ المسلوبة، واستطعن تحرير أنفسهن وبلداتهنّ من العبودية والظلم وأبرز من يمثّل هذا المستوى:

¹ ابن الأثير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر الفُضاعي: الحلة السيرة، ج2، تح حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، مصر، 1985، ص62.

² يُنظر بوفلاحة سعد، ص134.

تمثلات العبودية والانعتاق في الشعر النسوي الأندلسي

أولاً: حسانة التميمية هي "حسانة بنت أبي المخشي التميمية العبادية، ورثت الأدب وفن الشعر والنظم عن أبيها أبي المخشي أو المَحْشَى¹، توفي أبوها في دولة الحكم بن هشام وتركها تتجرع الأسى بعدما كانت في نعيم حمايته ورعايته، فالتجأت إلى الأمير الحكم بن هشام تصوّر حالها قائلة²:

إني أليك أبا العاصي مَوْجَعَةً أبا المَحْشَى سَقَنهُ الواكفَ الدَّيْمُ
قد كُنْتُ أرتعُ في نُعماهُ عاكفةً فاليومَ آوي إلى نُعماك يا حَكْمُ
أنتَ الإمامُ الذي انقادَ الأنامُ لَهُ ومَلَكْتُهُ مقاليدَ النُّهى الأُمَمُ
لا شيءَ أخشى إذا ما كنتَ لي كَتَفًا آوي إليه ولا يَغرُني العدمُ
لا زلتَ بالعزّةِ القعساءِ مُرتديًا حتّى تذلَّ إليك العربُ والعجمُ

هذه الأبيات الشاكية المستعطفة والممزوجة بالمدح استطاعت بها الشاعرة أن تحوز عطف الحكم فرضخ لطلبها، بعدما "وقعت موقعا حسنا في نفسه، وحركت عطفه واستثارت إعجابه، فأمر لها بأجر، وكتب إلى عامله على البيرة يوصيه بها خيرا، فأكرمها وجهّزها بجهاز حسن ووقع لها الحكم بخطّ يده تحرير أملاكها، ولما مات الحكم نكل عامله على البيرة عن الوفاء بعهائها، فتوسّلت له بخطّ الحكم فلم يجبها"³، ولكن يبدو أنّ الشاعرة التميمية تتميز بقوة شخصيتها، وتحسن الدفاع عن حقّها إذا ما لحقها ظلم، إذ كان من حقّ المرأة الأندلسية أن ترفع شكواها ومظلمتها للقاضي فينظر فيها بعين العدل، وتتميّز القضاء الإسلامي في الأندلس بالصرامة في تنفيذ الأحكام⁴، فما بالك إذا رفعنه في نظم رقيق ومعنى عميق يدقّ قلوب السلاطين والحكّام فيلبّون ويكثرّون العطايا، والشاعرة حسّانة كانت ذات مظلمة واستطاعت استرداد حقوقها بشعرها، "حين وفدت على الخليفة الأمير عبد الرحمن بن الحكم تشكو إليه جابر بن لبيد عامل البيرة وأنشدته من شعرها هذه الأبيات"⁵:

¹ هو عاصم بن زيد بن يحيى التميمي العبادي الشاعر المشهور كان من فحول الشعراء القدماء المتقدمين بالأندلس.

² يُنظر جمعة أحمد خليل، ص 174، 178، 180.

³ بوفلاقة سعد ، ص 42، 43.

⁴ يُنظر حمدي مليكة: الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، 2013 / 2014، ص 398.

⁵ المقري: نفح الطيب، ج 4، ص 168.

تمثلات العبودية والانعتاق في الشعر النسوي الأندلسي

إلى ذي المجد والندى سارث ركاثي
على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعي إنه خير جابر
ويمعني من ذي الظلّمة جابر
فإني وأيتامي بقبضة كفّه
كذي ريش أضحي في مخالب كاسر
جدير لمثلي أن يُقال مروءة
لموت أبي العاص الذي كان نصري
سقاء الحيا لو كان حيا لما اعتدى
عليّ زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذي خطته يمناه جابر
لقد سام بالأملاك إحدى الكباير

ولما فرغت من إنشادها رفعت إليه خطّ والده، فاستجاب لها وأمر لها بجائزة وعزل ظالمها¹، واستنادا لقصة شاعرتنا حسّانة التميمية يتراءى أنّ شاعرات الأندلس عرفن كيف يغتتمن ملكتهن الشعرية في رفع مظالمهنّ أمام الحكّام الذين كانوا بدورهم لا يتوانون في الاستجابة، إذ كان لوقع شعرهنّ أثره الواضح في قلوب الحكّام والأمراء.

ثانياً: الشلبية تحذو حذو صاحبته، وقد ذكرتها المصادر بهذه النسبة لمدينة (شلب الأندلسية) دون الإفصاح عن اسمها، فعرّفناها بالشلبية، "والشلبية وصل صوتها المتمثّل في شعرها إلى قصور السلاطين والأمراء وذلك في ما بين القرنين السادس والسابع الهجريين وقد صوّرت شكواها شعرا، حيث كانت تعاني من ظلم وجور والي بلدها الذي أحال مدينة شلب إلى نار حامية بعد أن كانت جنة، فوجّهت شعرها الباكي إلى السلطان يعقوب المنصور أحد ملوك الموحّدين تقول²:

قد آن أن تبكي العيونُ الآبية ولقد أرى أنّ الحجارةَ باكيه
يا قاصدَ المِصرَ الذي يُرجى به إن قدرَ الرحمنُ رفعُ كراهيه
نادِ الأميرَ إذا وقفتَ ببابه يا راعيّا إنّ الرعيّةَ فانيه
أرسلتُها هملاً ولا مرعى لها وتركتُها نهبَ السّباعِ العاديه

¹ بوفلاقة سعد ، ص 43.

² جمعة أحمد خليل ، ص 266.

شَلْبُ كَلَا شِلْبٍ وَكَانَتْ جَنَّةً فَأَعَادَهَا الطَّاغَوْنَ نَارًا حَامِيَه
حافوا وما خافوا عقوبة ربهم والله لا تخفى عليه خافيه

قيل أنّ هذه الأبيات أُلقيت يوم الجمعة على مصلى المنصور، فلمّا قضى الصلاة وتصفّحها بحث عن القصّة، فوقف على حقيقتها وبعث للمرأة بصلّة¹، وكشف ظلامتها بعزل ذلك الوالي².

اللافت للنظر في أبيات الشلبية "الجرأة في رفع مظلمتها وشكواها بطريقة مباشرة لا إيماء ولا تورية فيها فهي تهاجم ولاية بلدها وتصفهم بالطغاة الذين عاثوا فسادا في بلدها وتشكوهم لأمر المؤمنين الذي رفع عنها وعن بلدها الظلم... وقد استطاعت الشاعرة أن تتقذ بلدتها من استبداد وظلم الولاية... فوجدت الآذان الصاغية التي تطرب للكلمة المعبرة، فرقت لها وأنصفتها"³، وليس ببعيد عن حكاية الشلبية وأخبارها في شكواها ما جاء في خبر الشاعرة

ثالثا: أسماء العامرية التي عاشت في عصر الموحّدين، ورغم أنّ ما وصلنا من شعرها قليل يكاد لا يتجاوز ثلاث أبيات من قصيدة بعثت بها إلى عبد المؤمن بن علي ملك الموحّدين إلاّ أنّها استطاعت أن تنقل من خلالها صورة حالها الشاكي طالبة أن يُرفع الإنزال عن دارها والاعتقال عن مالها تقول⁴:

عَرَفْنَا النَّصْرَ وَالْفَتْحَ الْمُبِينَا لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَا
إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ عَنِ الْمَعَالِي رَأَيْتُ حَدِيثَكُمْ فِينَا شُجُونَا
ومنها أيضا:

رَوَيْتُمْ عِلْمَهُ فَعَلِمْتُمُوهُ وَصُنْتُمْ عَهْدَهُ فَعَدَا مَصُونَا

إنّها تنتظّم من والي بلدتها وصاحب خراجها، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي تنتظّم من ولاية بلدها وتطلب منه أن يرفع ما وقع عن أموالها من اعتقال والقصيدة لم تصلنا كاملة،

¹ يُنظر المقرّي: نفح الطيب، ج4، ص294.

² جمعة أحمد خليل، ص266.

³ بوفلاحة سعد، ص179.

⁴ المقرّي: نفح الطيب، ج4، ص292.

تمثيلات العبودية والانعتاق في الشعر النسوي الأندلسي

والأبيات التي بين أيدينا ليس فيها ما يصور وقائع قصتها عدا ما نقله لنا المقرئ في نفحه فيما تعلّق بمناسبة هذه الأبيات .

وعموماً فالتاريخ النسوي لنساء الأندلس يروي لنا أصواتاً نسائية عانقت أسماع الأمراء، فاستجابوا لها بكل إنصات ورأفة، ولّبوا مطالب شاعرات الأندلس اللاتي رفعن شكواهنّ ومظالمهنّ في شعر رقيق خاطب القلوب قبل العقول.

الخاتمة:

- يعدّ مفهوم العبودية والانعتاق مفهوماً نسبياً، وهما حالتين متلازمتين توجب إحداها الأخرى، فالعبد يسعى دوماً للعتق والتحرّر الذي يستمدّ تعريفاته هو الآخر ومفهومه من حقل العبودية.
- عرف المجتمع الأندلسي طبقيّة اجتماعية صارخة، شكّلت فئة العبيد والإماء جزءاً من تركيبته الاجتماعية ومظهره الثقافي.
- اهتمّ المؤرّخون بأخبار السيّدّة الحرّة على حساب الأمة الجارية، لكن هذا لم ينفِ اهتمام المجتمع الأندلسي بتعليم الجوّاري بغية في زيادة أثمانهنّ، فبرعت نساء الأندلس في نظم رقيق الأشعار، ورغم أنّ الحرائر كنّ أكثر عدداً إلّا أنّ الجوّاري كنّ أبلغ أثراً.
- يعتبر الشعر بعامّة والنسوي بخاصّة بمثابة وثيقة ثقافية، تسرّب من خلال بنائها اللّغوي أنساق ثقافية ومظاهر اجتماعية.
- الشعر النسوي الأندلسي حافل بالألفاظ والتراكيب الدّالة على حقلي العبودية والانعتاق.
- لم تختصّ مظاهر العبودية في شعر الجوّاري ولا مظاهر الانعتاق والتحرّر في شعر الحرائر، بل اشتمل شعر كليهما على المظهرين سواء بسواء.
- تمادت بعض شواعر الأندلس في التحرّر والانعتاق من كلّ رقيب حدّ الانفلات والإسفاف، فجهرن بالغزل الماجن والهجاء الفاحش.
- حمل مظهر الانعتاق لدى شواعر الأندلس وجهين مختلفين أحدهما مكروه مذموم، والآخر مستحبّ ومطلوب.
- استطاعت بعض نساء الأندلس تحديداً الجوّاري منهنّ ممّن امتلكن سرعة البديهة والحدق والفتنة علاوة على حسن المظهر ورقة النظم، أسر قلوب الملوك والسّادة، فقفزن بشعرهن

من ظلمة العبودية لنور الانتعاق والتحرّر، كما استطاعت أخريات بفضل شعرهن التخلّص من ظلم وجور الولاة ولاقين آذانا صاغية واستجابة لدى الحكّام وأصحاب القرار.

- المرأة التي تعيش حالة عبودية مهما كان شكلها، سواء ظاهرة ماديّة أو نفسية معنوية، وجب عليها السعي بالإرادة والإصرار للتحرّر والانتعاق.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

- . ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القُضاعي: الحلة السيرة، ج2، تح حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، مصر، 1985.
- . إبراهيم توفيق عمر: صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، 2011.
- . إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ط2، مجمع اللغة العربية، مصر، 1972.
- . ابن بسّام الشنتريني أبو الحسن علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج3، تح إحسان عبّاس، دط، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1997.
- . بوفلاحة سعد، ص 194؛ ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، تح محمد عبد الله عنان، ط2، الشركة المصرية للطباعة والنشر، مصر، 1973.
- . جمعة أحمد خليل: نساء من الأندلس، ط1، اليمامة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 2001.
- . ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، تح محمد عبد الله عنان، ط2، الشركة المصرية للطباعة والنشر، مصر، 1973.
- . الريسوني محمد المنتصر: الشعر النسوي في الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1978.
- . الشكعة مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ط4، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1979.
- . عباس دلال: المرأة الأندلسية مرآة حضارة شعّت لحظة وتشظّت، ط1، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 2019.
- . ابن عبد ربه الأندلسي أحمد بن محمد: طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وغرائب وأخبار وأسرار، تح محمد إبراهيم سليم، دط، مكتبة القرآن للطباعة والنشر، مصر، دت.

. علي سلمى علي، المرأة في الشعر الأندلسي عصر الطوائف، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر، 2014.

. المراكشي عبد الواحد: المَعْجَب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصحّحه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة، مصر، 1949.

. مصطفى مسعد سامية: صور من المجتمع الأندلسي (رؤية من خلال أشعار الأندلسيين وأمثالهم الشعبية)، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1998.

. المقرئ التلمساني أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، تح إحسان عباس، دط، دار صادر، لبنان، 1986.

. ابن منظور: لسان العرب، ج1، تح عبد الله علي الكبير وآخرون، دط، دار المعارف، مصر، دت.

ثانيا: الرسائل والمذكرات

. جانان عزالدين شبانة، الجوّاري وأثره في الشعر العربي في الأندلس، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الخليل، 2005.

. حمدي مليكة: الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، 2013/2014.

ثالثا: المقالات

. إقبالي عباس، بسندى فائزة: ميزات الغزل عند الشاعرات الأندلسيات في ضوء النقد النفسي الحديث، مجلة إضاءات نقدية، السنة الخامسة، العدد عشرون، 2015.

. العلي فريال عبد الرحمن الجوّاري في الأندلس جدل العبودية والإبداع، التواصل الأدبي، العدد العاشر، 2018.